لم يلبثوا أن خسروه نتيجة لـ«صفقة» عقدها الاميركان مع غيرهم.
حتّى اليوم، في الذكرى السنوية لمجزرة «رابعة»، يستنكف «الإخوان» عن توجيه نقدٍ حقيقيّ ومباشر لأميركا، أقلّه على ما فعلته بهم. هم يعرفون جيّداً أن من كان يقتل مناصريهم في الميادين، ويعتقل قادتهم وناشطيهم، هي فعلياً السياسة الأميركية لا السيسي. هم يدركون أنّ الولايات المتحدة انقلبت عليهم وعلى أيّ مفهوم للتمثيل الشعبي في مصر، وهم لا يزالون - مع الأسف - يأملون بعدم خسارة الرضا الأميركي ولا يريدون اغلاق الطريق على تفاهم جديدٍ في المستقبل يعيدهم الى منصة الحكم.
من تداعب خياله خططٌ من نوع «استخدام» اميركا واستغلال «تلاقي المصالح» معها، وهو يظن أنّه «يضحك» على الاميركيين ويتذاكى عليهم، ليس له الّا أن يقرأ تجربة «الإخوان» ومصيرها. المصيبة الحقيقية اليوم، لمن ينظر إلى الساحة الاسلامية، تتمثل في أن «داعش» أضحى التنظيم الاسلامي الوحيد في المنطقة الذي يحمل موقفاً جذرياً من السياسة الأميركية، فيما أغلب الاسلاميين الباقين قد اخترقوا وحُيّدوا، بعضهم دخل في صفقات تحت الجناح الأميركي والبعض الآخر يقاتل بأمر غرف العمليات في تركيا والأردن التي تديرها الـ«سي اي اي». هذا الواقع، لوحده، كفيلٌ بتحويل «داعش» الى القناة الوحيدة لجذب الشباب الاسلامي الذي يرفض الهيمنة الأميركية (بطبيعة الحال، فإنّ راديكالية «داعش» في وجه اميركا ما هي الا امتدادٌ لتطرّفه في التعامل مع المخالف القريب والبعيد - وهو لن يطاول اميركا، ولكنه في ديارنا).

ثمن الانشقاق

المسألة هنا ليست على طريقة توصيف «نعوم تشومسكي» لعلاقة الفرد مع النظام الرأسمالي، حيث تنازلٌ صغير يجرّ آخر، حتّى يجد الانسان نفسه وقد صار غارقاً في نظام السوق وعقليّتها، وفي حالة اعتمادٍ لا فكاك منها، بل هي تتعلّق بكامل البنية التراتبية التي تحكم علاقة اميركا مع باقي العالم. في أزماننا هذه، انت ان لم تكن تملك ترسانة نووية، أو بلداً بحجم قارّة كالصين أو الهند، فإنّ مصيرك الطبيعي هو الالحاق ضمن المعسكر الاميركي ومنظومته العالمية. لا توجد علاقةٌ في الساحة الدوليّة لا يحكمها منطق القوّة. روسيا تكتشف اليوم أنّ كل المؤسسات العالمية، وصولاً إلى أنظمة تحويل النقد وخوادم الانترنت والمحاكم الدولية، سوف تتحوّل إلى أسلحة ضدّك لدى أوّل اختلاف مع السياسة الاميركية (حتّى لو كان مردّ الخلاف أنّ الاتحاد الاوروبي والولايات المتحدة قاما، بشكلٍ علني، بتشجيع وتشريع انقلابٍ ضد الحكومة المنتخبة في اوكرانيا، شعارهُ الأساس معاداة روسيا).
لهذا السبب تنهمك روسيا اليوم في انشاء مؤسسات بديلة للتعاملات المصرفيّة وتبني الصين وإيران شبكات انترنت وطنية، لا تمرّ عبر خوادم خارجية ولا يمكن قطعها أو التأثير فيها بسهولة (والصين أصرّت، منذ بداية عهد الانفتاح فيها، على ابقاء التعاملات المالية مع الخارج تحت سيادة الدولة حصراً). هذه البدائل لن تكون أكثر كفاءة من المؤسسات المعتمدة عالمياً، ولكنّها السبيل الوحيد لحماية هذه الدول من مصير كوريا الشمالية - بمجرّد توقيع زعماء غربيين على سلسلة قوانين وعقوبات.
في عالمنا هذا، كلّ الخيارات صعبة، ولا معنى هنا للتدثّر بتعابير فضفاضة واستسهالية مثل «معاداة الامبريالية»، يمكن لأيّ كان أن ينضوي تحتها؛ اذ لا يوجد بالمعنى العملي شيءٌ اسمه «معاداة الامبريالية»، يملك بنية واضحة، وعقلاً مركزياً يخطط، ويشمل قوىً قادرة على مقارعة الامبراطورية. كما اننّا لم نعد في الأيّام التي كان الزعماء العرب فيها، كصدام حسين وحافظ الأسد، يحاولون «اللعب على الحبال» واستغلال التناقضات بين المعسكرات الدولية بغية تحصيل مكاسب من الجهتين. صارت الهيمنة الأميركية مباشرة وآمرة، من يراقب تفاعل الإدارة الأميركية مع الأنظمة التابعة لها في منطقتنا، أو يقرأ ببساطة وثائق «ويكيليكس»، يدرك أن العلاقة تقتصر على تقسيم المهمات، حيث تعيّن الولايات المتّحدة، لكلّ «حليفٍ» لها، دوراً محدداً ضمن الاستراتيجية الاميركية في اقليمه، وما عليه الا التنفيذ.
قد يحاجج البعض بأنّه من الأسلم دخول هذه العلاقة غير المتكافئة، وتجنّب كلفة التحدّي، وأن نحاول أن نتبع مسار دولٍ ككوريا وتايوان واليابان، تمكّنت من تحقيق التنمية والتقدّم عبر التعاون مع النظام المهيمن بدلاً من الخروج عليه. ولكن من الضروري هنا أن نعي جيّداً شروط الخضوع في منطقة كالشرق الأوسط، وما اذا كنّا مستعدّين لاحتمالها: التصالح مع اميركا، مثلاً، يعني مباشرةً أن ننسى فلسطين وتحريرها، وأن نخضع اقتصادياتنا لمشيئة المؤسسات الدولية، ونحن لا نملك طبقات برجوازية قديمة - كما في إيران والهند مثلاً - لديها مصلحة في الاستثمار الوطني وتنمية البلد، ولا نملك (كاليابان وتايوان وكوريا) ارث دولة مؤسسية متمرّسة في الإدارة. بمعنى آخر، فإنّ ارساء النظام الاميركي لدينا لن يعني إلا ادامة حكم النخب القاصرة والطبقات الناهبة والفئات المتحالفة مع الخارج.
الخيار هو ليس بين الخضوع الكامل لأميركا أو العداء النهائي معها، بل هو يتعلّق بمستوى التنازلات الذي تقبل به، و- وهذا أهمّ - النيّة الأميركية نفسها، التي قد لا تكون تصالحية أو قابلة للمساومة. في حالة إيران مثلاً، وهذه نقطة يجب تكرارها حتى نفهم حقيقة الموقف الايراني من السياسة الدولية، لم تكن إيران - برغم ارث حرب الخليج - في وارد الصدام مع الولايات المتحدة، وكانت بياناتها الرسمية (ولم تزل) تدعو باستمرار الى علاقات جيدة مع اميركا وغيرها من الدول الغربية. بل إن ايران كانت مستعدّة لتقديم تنازلات جدية في هذا الاطار، وفي إيران أصلاً نخبٌ وطبقات تسعى بحماس الى دخول منظمة التجارة الدولية وفتح العلاقات التجارية مع الغرب وتلزيم قطاع الطاقة في إيران للشركات الغربية. من هنا، لا يستغرب التفاوض الاميركي - الإيراني ومحاولات التقارب بين الحكومتين إلّا من يعتمد الصورة النمطية التي خلقتها أميركا عن إيران، ويجهل حقيقة التفكير السياسي الإيراني. جلّ ما أراده الإيرانيون هو أن تكون العلاقة مختلفة عن النمط «الاختراقي» الفوقي الذي يحكم صلة العديد من الدول الصغيرة باميركا - بمعنى آخر، أرادت إيران من أميركا أن تعترف بها كـ«قوة اقليمية»، لها درجة من الاستقلالية، وسياسات خاصة بها في منطقتها والعالم، والحقّ في مدّ نفوذها وعلاقاتها في الدول المجاورة (وبعد ما فعله جيران إيران بها خلال حرب الخليج، لا يمكن أن نلوم الإيرانيين إذا ما خالطهم قدرٌ ما من البارانويا، وسعوا الى حماية انفسهم من محيطهم). أميركا هي التي لم تقبل بهذه الصيغة، فبدأت، من جانب واحد، بفرض العقوبات على إيران في عهد كلينتون (من دون سبب مباشر)، وأطلقت علناً سياسة «الاحتواء»، حتى جاء عهد جورج بوش الذي وضع إيران في «محور الشر»، ونزع الشرعية عن النظام الإيراني، وجعل من تغييره هدفاً رسمياً للسياسة الأميركية - هكذا ابتدأت المواجهة.

خاتمة

في العقدين الماضيين، كانت الهيمنة تمارس نفوذها وحروبها وغزواتها تحت ادعاءات قانونية وانسانوية كونيّة، تصوّر أفعالها دائماً على انّها تجسيدٌ للشرعية الدولية ولمفهوم العدالة والمصلحة العامة. بطبيعة الحال، الكثير من النخب في العالم الثالث استنسخت هذه المفاهيم عن «الشرعية الدولية» و«المجتمع الدولي» وصدّقتها وجعلتها جزءاً من ثقافتها ونظرتها الى العالم. ولكن، مع تقلّص القوة الغربية وقدراتها، تبدأ هذه «المبادئ» والشرائع بالانحلال، بالتوازي مع انحسار القوة المهيمنة. الراحل الكبير هادي العلوي كان يفترض أنّ زوال سطوة الغرب كفيلٌ، في ذاته، بتغيير مسار الحضارة الانسانية، وفتح احتمالات جديدة للحياة البشرية، اقل مادية واكثر تحرراً. ولكننا انسجاماً مع رفض الجوهرانيّة، سننطلق من فكرة أنّ البشر متشابهون، وأن لا ضمانة في أنّ العالم الجديد الذي يتشكل اليوم سوف يكون أفضل وأكثر اخلاقية من سابقه. بالفعل، على مستوى معيّن، فإنّ التعامل مع دول كروسيا والصين لا يختلف جذرياً عن العلاقة مع الدول الغربية. الروس والصينيون والإيرانيون وغيرهم لا يختلفون، في نهاية الأمر، عن الغربيين في براغماتيهم وسعيهم خلف مصالحهم، وفي قدرتهم على الاعتداء والأذى، ولكنّهم حين يفعلون هذه الأمور، على الأقل، فإنّهم لا يفرضونها علينا تحت اسم العدالة والشرعية والحضارة.

* من أسرة «الأخبار»

> الخاسر الأول من «وهم التصالح» كان من دون شك تنظيم «الإخوان» في المنطقة

> سوريا قد تكون بوابة فتح قفل التغيير والتحول من مشهد إلى آخر

الشتاء والصيف السعودية الايرانية.
كل الملفات حضرت، ولكنها على «يخت» العلاقات الثنائية، كما تقول مصادر مطلعة على لقاء المسؤول الإيراني الرفيع مع الامير السعودي الذي كان حريصاً على أن يظهر بأنه الوحيد المسؤول عن ملف إيران وأنه يريد إيصاله الى شاطئ التصالح والأمن والأمان ما دام هو على قيد الحياة، وأنه أخيراً قد يقبل بالتجديد والتغيير في بعض القراءات لملفات المنطقة ما دام قد ظهر عدو مشترك لطهران والرياض معاً.
اتفق الطرفان على آليات التواصل وسبل التقدم بخطوات تصاعدية تفضي الى محطات جديدة تبدأ بلقاء الوزيرين في الرياض ومن ثم الانتقال الى طهران، وبعدها قد يتوّج الامر بما هو أعلى من ذلك إذا سارت أمور الثنائي والمحيط كما يشتهي ربان سفينة العائلة الذي يبدو أنه يشعر، على حد ما سمع الضيف المكرم، وكأن البحار تموج وترتج من حوله.
الوسيط الكويتي يرى في العراق مفتاحاً. ووسطاء آخرون يرون في خطر داعش جامعاً. ومراقبون متابعون ومهتمون يرون في اليمن همّاً جامعاً مانعاً. نعم سوريا قد تكون بوابة فتح قفل التغيير والتحول من مشهد الى آخر.
لبنان آخر المحطات التي لن تكون سهلة أبداً رغم كونها الحلقة الأضعف في الجسم العربي الرسمي. أما فلسطين فهي السهل الممتنع دوماً. ما أسهل التوافق عليها قضية مركزية جامعة، وما أبعد المسافات بين رؤية وأخرى.

> سوريا قد تكون بوابة فتح قفل التغيير والتحول من مشهد إلى آخر

أما «الشيطان الأكبر» فهو الحاضر الغائب المشوق المانع والمخاتل اللاسع والمراوغ القاطع، يقول شيئاً هنا وآخر هناك، يبيع ويشتري بأحد ملفات المنطقة أكثر من مئة مرة، من دون أن يسلم البضاعة ولا مرة واحدة.
حائك السجاد الايراني يعي ذلك تماماً، لذلك تراه يفصل بوضوح بين ملف علاقاته مع هذا المراوغ الذي يتعامل معه لأجل إتمام الحجة معه ليس أكثر، وهو العارف بأنه سيمزق المواثيق في أول فرصة، وملفات جيران يعتبرهم أبديين ولا يجوز النكث بالعهود معهم، شرط أن يقرروا الإقلاع بيختهم، من دون حماية سفينة أميركية شريرة يعرفون أن عينها على شيطان صغير هي من أرضعته ولا تزال تغذيه على حساب سكان الأرض وأصحاب الحق الأصليين.
بين «الخوف والرجاء»، يعيش أمراء منطقة المياه الدافئة في الضفة الجنوبية من بحيرة الإخاء العربي الإيراني وهم ينظرون الى الراعي الأكبر لسياساتهم الاقليمية والدولية. أهي الحرب المقبلة أم التسوية وعالم الصفقات؟ هذا فيما يتعاطى جارهم الشمالي على الطرف الآخر من هذه البحيرة في السلم كما في الحرب بعلم اليقين وعيونهم الأربعة مفتحة باتجاه ما وراء البحار. عيون لم يألفها كبيرهم الذي علمهم السحر، عقيدة وعزيمة وعلماً وعقلاً.

* أمين عام منتدى الحوار العربي الإيراني